كلمة الدكتور محمَّد قاسم
أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السَّيِّد وزير التعليم العالي والبحث العلّميّ الدكتور مروان الحلبيّ
السَّيِّد رئيس مجمع اللُّغة العربيَّة الدكتور محمود السّيّد
السَّيِّد رئيس جامعة دمشق الدكتور مصطفى صائم الدَّهر
السَّادةُ الرُّصفاء المجمعيُّون
السَّيِّدات والسَّادة الحضور
أيُّها الحَفْلُ الكريم

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نَلْتقي في رحاب مَجْمَع الخالدين اليوم لنُكَرِّمَ عَلَمًا مِنْ أعلامِهِ العلماءِ الأَجِلَّاء الذين أَفْنَوا أَعمارَهم وربيعَ حياتِهم في خِدْمَةِ عِلْمِ الفِيزياء والعربيَّة تَدْرِيْسًا وتَأْليفًا وتَرْجَمَةً واحتراقًا بالعِلْمِ وٱنصرافًا إليه وإجلالًا لأَهْلِهِ: أُسْتاذَنا الجليلَ العالمَ الفيزيائيَّ اللُّغويَّ الدكتور محمَّد مكّي الحَسَنِيّ الجزائريّ سليلَ أسرةٍ شريعتُها العِلْمُ وسَمْتُها الفَضْلُ، وجدُّها الأميرُ المُجَاهِدُ عبدُ القادر الحسنيّ الجزائريّ.

وتكريمُ العلماءِ الأَجِلَّاءِ شِرْعَةُ مَجْمَعِ الخالدين الّتي لا يبغي عنها حِوَلًا مِن لَدُنْ وُلِدَ حتَّى الآن، يظهرُ ذلك في تقاليده العريقةِ في انتخابِ العلماءِ في مختلفِ حقولِ المعرفةِ واستقبالِهم والاحتفاءِ بهم والاحتكامِ إلى عِلْمِهم في استيلادِ مصطلحات العلوم، والترجمةِ لهم في كُتُبٍ مُفْرَدَةٍ على حيالِها، ومِن هذِهِ البابةِ: كتاب أعلام مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق في مئة عام (١٩١٩-٢٠١٩م) الّذي أعدَّه الأستاذ مروان البَوَّاب، وراجعة الدكتور مازن المبارك والدكتور مكّي الحسنيّ، حفظهم الله جميعًا، وتأبينِهم والإتيانِ على فَضْلِهم وسجاياهم وما جُبِلُوا عليه مِنْ كريم الخِلال.

سمعتُ اسْمَ الدكتور مكّيّ أَوَّلَ مَرَّةٍ على لسان أُستاذي المحقِّق الدكتور محمَّد أحمد الدَّالي رحمه الله رحمةً سابغةً، ولقَّاهُ نَضْرَةً وحريرًا، أَيَّامَ كنتُ طالبًا في مرحلة الماجستير، إذ ذكر الدكتور مكّيًّا بنَبْرَةٍ فيها إجلالٌ وإشادةٌ واستحسانٌ لِمَا يكتبُهُ في مجلّة جامعة دمشق للعلوم الصّحّيّة مِنْ بابةٍ كان الدكتور مكّيّ أَصيلًا في طَرْقِها ووُلُوْجِها، أَعْني بابةَ «نحو إتقان الكتابة العلميَّة باللُّغة العربيَّة»، إذ فَطِنَ الرَّجُلُ لِمَا شاع على أَلسنة المؤلِّفين العلميّين في العلوم البحتة من أساليبَ ملحونةٍ استبدَّتْ بأقلامِهم مِن جرَّاءِ الترجمة الحرفيّة وما يتطايرُ منها من غثاءٍ وزَبَدٍ، وضآلةِ ما حَصَّلُوه مِن زادٍ لغوي مِنْ مُدَوَّنَةِ العربيَّة، فغلبتِ الهُجْنةُ، وغابَ عنهم البيانُ العربيُّ المُشْرِقُ الذي خَصَّ اللهُ العربَ به، فرَاحَ يُفَنِّدُ هذه الأساليبَ الهَجِيْنَةَ والتراكيبَ الرّكيكةَ، يُبَيِّنُ وَجْهَ الخَلَلِ فيها، ويقترحُ لها لَبُوْسًا عربيًّا أَصِيْلًا يُدْرِجُها في سماحة البيان العربيّ، ويُذْكي جُذْوة الجمال فيها.

ووَجْهُ إِعْجَابِ الدكتور الدَّالي بالدكتور مكّيّ أَنَّهُ فيزيائيٌّ يخوض في

مسائِلَ لغويَّةٍ دقيقةٍ ربَّما قَعَدَ عنها المختصُّون، وأَنَّهُ يَفْطَنُ لمحنة العربيَّة التي تكابدُها في أقلامِ أولئك الكَتَبَةِ، وأَنَّهُ يَقْتَرِحُ الفُتْيَا الّتي تُزيل عنها هذِهِ الرِّكَّةَ وهذا الضَّعْفَ، وتَخْلَعُ عليها سِرْبَالَ اللِّسانِ العربيِّ المُبين، وأَنَّ مِنْ وراءِ ذلك حِسًّا عروبيًّا ساميًا يَرْشَحُ مِنْهُ عِشْقُ هذه اللُّغةِ الشَّريفةِ، وغيرةٌ عليها قلَّما تُصِيْبُها عند المُشتغلين بهاتيك العلوم.

ثُمَّ لمَّا جَرَتِ المقاديرُ أَنْ أَلْتَحِقَ برَكْبِ مَجْمَعِ الخالدين عَرَفْتُ الدكتور مَكِّيًّا عن قُرْبٍ، فإذا هو العالِمُ الجليلُ المَهِيْبُ الذي تَحَلَّقَ النَّاسُ حَوْلَهُ وهو الأَمينُ العامُّ للمَجْمَعِ يستنيرون برَأْيِهِ، ويحتكمون إليه، فيجيبُهم بتواضعٍ جَمٍّ وإنسانيَّةٍ تفيضُ فَيْضَ الماءِ العَذْبِ الزُّلالِ، يَتَأَلَّفُ قلوبَهم ويَصْطَنِعُهم بحكمةِ الشُّيوخ وحِلْمِهم، وقد نَهَضَ بهذه الرِّسالة الجليلة زهاءَ ستَّةَ عَشَرَ عامًا، فتَرَكَ فيمن حَوْلَهُ مِنَ الأَعْضَاءِ والموظَّفين أَطْيَبَ الأَثر، يَتَلَمَّسُ أوجاعَهم وآلامَهم وهُمُوْمَهم، ويُداويها بالكلمة الطّيِّبة والصُّنْعِ الجميل، وإليه يَذْهَبُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وأَبْيضَ فيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ على مُعْتَفِيْهِ ما تُغِبُّ فَوَاضِلُهْ

ثُمَّ لمَّا اطَّلَعْتُ على بَعْضِ ما كَتَبَ في العربيَّة رأيتُ سنا رجلٍ عالمٍ بصيرٍ حاذقٍ بأساليب العربيَّة وأسرار البيان، ويَقُوْلُ في اكتسابها ما يقول المُعاينُ الحَصِيْفُ: الاقتدارُ على القَوْلِ وسماحةُ التَّعبير وسلامتُهُ مُكْتَسَبٌ بالحِفْظِ والسَّماعِ، وتَحْصِيْلُ العربيَّة بالحِفْظِ أكثرُ مِنْ تحصيلها بتَعَلُّمِ الضَّوَابِطِ والقواعد، ولهذا ما أرسلتِ العربُ أَبناءَها إلى أَعماقِ البوادي في تِهامة ونَجْدٍ ليَرْتَضِعُوا الفصاحة مِنْ مناهلها، وهو شيءٌ نَصَّ عليه أفذاذُ العلماء، منهم ابن خلدون الذي قال في مقدّمته:

«إِنَّ حُصُوْلَ مَلَكَةِ اللِّسَانِ العربيِّ إِنَّما هو بكثرةِ الحِفْظِ من كلام العرب حتَّى يَرْتَسِمَ في خيالِهِ المِنْوَالُ الّذي نسجوا عليه تراكيبَهم، فيَنْسِجَ هو عليه، ويَتَنَزَّلَ بذلك منزلةَ مَنْ نَشَأَ مَعَهم، وخالط عباراتِهم في كلامِهم، حتَّى حَصَلَتِ لَهُ المَلَكَةُ المُسْتَقِرَّةُ في العبارةِ عن المَقَاصِدِ على نَحْوِ كلامِهم» اهـ.

فالقراءة الواعية للنُّصُوص الفِصَاحِ، وحِفْظُ ما يَظْهَرُ من تراكيبها ومُفرداتها هو الأساس في اكتساب أَيِّ لغة، وقد اقتراح الدكتور مكّي جملة مِن النُّصوص القديمة والحديثة التي رأى فيها زادًا لُغَوِيًّا يُثْري المُتَعَلِّمَ ويَرْفُدُهُ بما يُعِيْنُهُ على العبارةِ عن أغراضِهِ ومقاصِدِهِ، منها كتابُ العربيَّة الأوَّلُ القرآن الكريم، والبيان والتّبيين، والكامل، وعيون الأخبار، وآثار ابن المقفَّع: كليلة ودمنة والدُّرَّة اليتيمة والأدب الصَّغير، وديوان الفرزدق الذي حَوَى ثُلُثَيْ ألفاظ العربيَّة ونِصْفَ أخبار العرب.

وقد عانيتُ ما قاله في تَدْرِيْسِ العربيَّة زهاءَ عشرين عامًا، فتبيَّن لي أَنَّ الحافظَ لنصوصِ العربيَّة العِتَاقِ الأُوَلِ أَعْصَمُ لسانًا وأَسمحُ بَيَانًا وأَنْدَى عبارةً مِمَّنْ أَحاطَ بقواعد اللُّغة نَحْوِها وصَرْفِها، ولأَمْرٍ ما قالوا: احفظْ، فكُلُّ حافظٍ في قَوْمِهِ إِمامٌ.

لقد خَدَمَ الدكتور مكّيّ العربيَّةَ زهاء رُبْعِ قَرْنٍ قَضَاهَا في مجالس المَجْمَع واجتماع لِجَانِهِ: لجنةِ مصطلحات العلوم الفيزيائيَّة، ولجنةِ مصطلحات العلوم الكيميائيَّة، ولجنةِ المعجمات اللُّغويَّة، ولجنةِ الهندسة الكهربائيَّة والإلكترونيَّة، ولجنةِ مصطلحات الاستشعار عن بُعْدٍ وغَيْرِها.

وقد عُرِفَ عن الدكتور مكّيّ الالتزام والمثابرة في استيلاد المصطلحات، لا يتخلَّفُ عمَّا يُدْعى إِليه مِن أعمال المجمع على المَنْشَطِ

والمَكْرَهِ والصّحّة والمرض والسَّعةِ والضَّنْكِ إلى وِدَادٍ يستشعرُ دِفْئَهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ.

ثُمَّ لمَّا قَعَدَتْ صِحَّتُهُ عمَّا يتولَّاهُ مِن أعمال أمانة المجمع رَغِبَ إلى السَّيِّد رئيسِ المَجْمَعِ أَنْ يَفْتَحَ بابَ التَّرشُّح لأمانة المجمع ليُسَلِّمَ الرَّاية إلى مَنْ ينهض بها، ثقةً منه أَنَّ هذِهِ رسالةٌ حضاريَّةٌ تُسَلِّمُها أجيالٌ إلى أجيال، وأَنَّ هذه سُنَّةُ اللهِ أَنْ يَأْخُذَ الصَّغيرُ عن الكبيرِ ما لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ، وكان أَنْ قَدَّرَ السَّادَةُ أعضاءُ المَجْمَعِ رغبةَ الدكتور مكّيّ، وحَرَصُوا على صِحَّتِهِ، فأَجَابُوْهُ إلى ما أَرادَ، على أَنَّ الإجماعَ مُنْعَقِدٌ على فَضْلِهِ وعِلْمِهِ وحَزْمِهِ، ولستُ تَرَى مَنْ يُجْمِعُ النَّاسُ عليه كما يُجْمِعُوْنَ عليه.

أيُّها الحَفْلُ الكريم

الدكتور مكّيّ وَجْهٌ ناصعٌ مِنْ وجوه دمشق التي تعلّمنا منها أبجديَّة الحُبّ والعروبة والياسمين، وعَالِمٌ عامِلٌ مِنْ جِلَّةِ علمائها الذين وقفوا أعمارَهم على خِدْمَةِ العلم ورجاله، وسيَبْقَى أَثَرُهُ نَسْمَةً هادئةً في إثر ماءٍ طَهُوْرٍ، ومنارةً مِن مَنَائِرِ دمشق يهتدي بها كُلُّ مِن سَلَكَ دَرْبَ العِلْمِ، واتَّخَذَ العربيَّةَ شِرْعةً ومنهاجًا.

سلامٌ عليك يا دكتور مكّيّ، ولا زالتْ عَيْنُ اللهِ تَكْلَؤُكُم، وأنتم مِن رجال هذه الأُمَّةِ الذين ذَادُوا عن ذِمَارِها وشَرَفِها بأقلامِهم وأرواحِهم.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *